لقد قالها ذلك الرباي الذي حمله المد اليميني في إسرائيل إلى حومة السياسة فصار وزير سياحة في وزارة الجنرال شارون، قال: إن هزيمة الفلسطينيين عسكريا ستفتح المجال لتهويد المناطق المحتلة ولترحيل أهالي القدس العرب.

وهذا التصريح الذي نشر في الأسبوع الماضي مكمل للتصريح الذي أطلقه في الأسبوع قبل الماضي وزير الأمن الداخلي المدعو عوزي ليندا و إذ قال: إن القتال مع الفلسطينيين قتال حتى الموت،لأنه ما دام لدى الفلسطينيين أمل فإن الإرهاب لن يتوقف.

تلك سلسلة متلاحقة الحلقات من تصريحات الرسميين الإسرائيليين. وذلك هو النهج، والبرنامج، والمخطط الذي اختزنه جنرالات اليمين الإسرائيلي وحاخاماته طويلا، وأنشؤوا عليه أجيالا من المستوطنين والأتباع. وعندما كانوا وهم خارج الحكم يفصحون عنه وهم قلما تستروا على آرائهم عموما كان الذين احترفوا خداع أنفسهم وخداع غيرهم في عالمنا العربي والإسلامي يقولون إن هؤلاء متطرفون ومتعصبون ولا يؤبه لهذيانهم، وإن المعول عليه هو حزب العمل والمعتدلون فيه بصورة خاصة. وعندما ظهر أن أغلبية الناخبين في الانتخابات العامة منحت شارون وأحزاب اليمين أغلبية غير مسبوقة وأحاطته بشعبية غير مسبوقة، وثابرت على ذلك بالرغم من الخسائر التي تكبدها الجمهور وحالة الكساد والبطالة المتنامية في إسرائيل، انتقل العجزة في أمتنا إلى مرحلة الترويج للعجز بمقولة إنه لا يمكن عمل شيء في مناخ الهجمة الأمريكية على المنطقة كلها، وإن خير ما نفعله هو انتظار ما سيتفتق عنه جهد المبعوث الأمريكي الجديد!

<u>في انتظار المصير</u>

هل سيقول المبعوث الجديد غير ما قاله رئيسه جورج بوش، من أن على السلطة الفلسطينية أن تستخدم القوة ضد الفلسطينيين الذين جرى تصنيفهم إسرائيليا وأمريكيا بأنهم إرهابيون؟ وهل تهتم الإدارة الأمريكية الراهنة لكون الفلسطينيين المستهدفين يشكلون نصف الشارع السياسي الفلسطيني، وكون المعنى الحقيقي للمطلب الأمريكي بالتالي هو إشعال حرب أهلية توفر على شارون تكاليف شن تلك الحرب بنفسه؟

حين يفصح الوزراء الإسرائيليون الحاليون عن القتل أسلوبا ووسيلة نهائية، وعن تهويد ما تبقى من فلسطين هدفا ناضجا حان أوانه، فإن العقول يجب أن تستنفر وتقوم بالوظيفة التي أناطها الله بعقول بني آدم. وحين يتخطى الأمر هذه الأقوال إلى تنفيذها على قدم وساق ويكون التنكيل والإذلال جزءا لا يتجزأ من ذلك التنفيذ، فإن القلوب التي في الصدور لا بد أن تتعاطف وأن تتحرك وأن تقوم بالوظيفة التي أناطها الله بقلوب بني آدم. إن قوات الاحتلال لم تعد قانعة بمجرد الإبقاء على المستعمرات القائمة في الضفة والقطاع، ولكنها تريد أن تنشئ مستعمرات جديدة وتستولي على أراض جديدة. وقوات الاحتلال لا تكتفي بقتل الكبار، بل تقتل الأطفال. ولا تكتفي بإلقاء القبض على الناس، لكنها ترغمهم على خلع ثيابهم في البرد القارس والمطر المنهمر ثم تسوقهم إلى مراكز التحقيق والتعذيب. وذلك كله ظاهر ومفهوم ومنشور في الصحف ووسائل الإعلام.

على العقول أن تبحث عن الشيء الذي يمكن عمله. فلا بد أن لدى هذه الأمة الطويلة العريضة ما يمكن عمله. وإذا كان التصدي لآلة الحرب الأمريكية غير معقول وغير منطقي، فلا منطق يبرر أن يكون موقف الأمة الوحيد هو أن تقعد كل دولة على حدة في انتظار مصيرها. إن الأمريكيين أنفسهم يتوقعون من الأمة موقفا آخر. وهذا هو السبب في أنهم لا يفصحون عن خطتهم بالجملة وإنما بالمفرق. والتعليل الذي فطن إليه المحللون لتفسير التحوطات الأمريكية هو أن الأمريكيين يريدون المضي في مخططهم دون استثارة العالم العربي والإسلامي. أي أنهم وضعوا الأمة وعقل الأمة في حساباتهم وضمن توقعاتهم. فإذا بالأمة في وضعها الرسمي الحالي تخيب ظنون أولئك الذين حسبوا أن لديها الحد الأدنى من العقل.

وعلى القلوب أن تتحرك وعلى المشاعر أن تستفز لمرأى هؤلاء الإخوة والأبناء يهانون ويعذبون ويذبحون. فالانتماء القومي يوحد المعاناة. وإذا افترضنا أن الشعور القومي صار رمادا، فهل فقدت الأمة الشعور الإنساني الذي يتأثر بإيقاع العذاب على الغير من منطلق أن الجسد البشري للغير شبيه بالجسد البشري الذي يخصنا وأن ألمه يجسد لنا ألمنا؟

انحسار المد عن الجزيرتين

غير أن آخر موقف للرسمية العربية، وهو المقررات الصادرة عن مؤتمر وزراء الخارجية العرب، القائلة إن الدول العربية ستقاطع شارون جزاء وفاقا لمقاطعته عرفات، يدفعنا إلى الاستنتاج إن صف الرسميين حالة ميؤوس منها ولا جدوى من التعلق بالأوهام إلا إذا كان هدفنا تمرير الوقت والتحايل على شعوبنا لصالح بقاء القديم على قدمه..

أهذا هو الفأر الذي تمخض عنه الجبل؟ أهذا هو كل حيلة ممثلي أمة يبلغ تعدادها هذا التعداد؟ وتتربع على هذه المساحة؟ وتملك هذا التاريخ؟؟

وكيف يمكننا أن نحدث الأجانب عن التزامهم نحو الحق والحقيقة وقرارات الشرعية الدولية وأن نطالب الأمم المتحدة أن تتذكر أنها مدينة للفلسطينيين بالدولة التي تحدث عنها قرار التقسيم عام ١٩٤٧، إذا كان الإخوة وزراء الخارجية العرب ومن وراءهم من الرسميين العرب ينسون التزام الدول العربية تجاه الفلسطينيين الذين ضيعتهم وعود الدول العربية بإغاثتهم وإنجادهم عام ١٩٤٨ فلم تمض شهور على استلام جيوش الجامعة العربية آنذاك فلسطين كاملة غير منقوصة إلا من يافا وحيفا ودير ياسين، حتى انحسرت الموجة عن غرق المساحة بكاملها ووقوف آلاف الفلسطينيين الذين صاروا لاجئين على جزيرة على الساحل تدعى قطاع غزة وجزيرة في الشرق تدعى الضفة الغربية.

إن هذا العجز الذي أبدته الرسمية العربية في هذا الموقف المفصلي يجعل الأمة كلها مطمعا للأجانب لا فلسطين وحدها.

وهنا نستذكر كما استذكرنا دائما مقولة جورج تينيت التي قذف بها في وجوه الفلسطينيين في كامب ديفيد عام ٢٠٠٠ حين قال لهم كي يفت في عضدهم ويؤكد لهم أنهم دونما ظهر ولا ظهير: ((إن الشرق الأوسط بشعوبه وحدوده قابل للتغيير)).

هل من الصعب أن نتخيل ما يعنيه جورج تينيت؟

إنه يعني إعادة تقسيم البلاد العربية باستيلاد دول جديدة فيها وتخصيص كل أقلية دينية أو مذهبية أو عرقية بدولة على أنقاض الدول القائمة حاليا. وستكون هذه الدول متعادية حتما، ضعيفة حتما، أعجز حتما من أن تلتفت إلى مشكلات الآخرين.

<u>ربع قرن من الفتن</u>

أليست الفتن الماثلة في المشرق العربي، فتن الأكراد والأشوريين والعرب والشيعة والسنة ملمحا من ملامح العمل الذي تقوم به السي آي إيه والموساد معا؟ وماذا عن الفتنة في الجنوب السوداني، فتنة جارانج والمسلمين والمسيحيين والوثنيين والبيض والسود؟ وماذا عن الفتن في المغرب العربي، فتنة الصحراء الغربية وفتن العرب والأمازيغ وحرب الوحوش البشرية في الجزائر باسم الإسلام والأصولية؟

انسوا فلسطين إذا أردتم، ولكن انظروا تحت أقدامكم على الأقل. أليست فترة ربع القرن الماضي إعلانا مستمرا ظاهرا طوال الأيام والشهور والسنوات ناطقا بأننا نعيش زمن حروب عربية عربية لم تستثن أي قطر عربي وجيرانه، ولم تستثن أية طائفة أو عرق أو مذهب داخل كل بلد عربي.

حروب الدول الشقيقة المجاورة بعضها مع بعض، وحروب الطوائف والأعراق والمذاهب داخل كل بلد في المنطقة.

انسوا فلسطين إذا أردتم ولكن حافظوا على ما في أيديكم. وتذكروا أننا وصلنا جميعا اليوم إلى الوضع الذي تنبأ به الرسول الصادق المصدوق. حين قال:

" تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها. ولكنكم غثاء كغثاء السيل "!!

ولماذا يكون الأمر على هذا النحو؟ وأي قدر مقدور جعله حتما محتوما؟ هل من يجيب أم أنه لا حياة لمن تنادي؟؟